نـافـذة

استهلاك الانتقام

تحقيقه يحمل بعدي الوطنية والسياسة اللذين يدعواننا للإسهام في تعزيز مبدأ تصالح المصالح وإخراجه بإعلان مقاطعة المقاطعة التي تستثمر فيها السياسة، لعلها تؤتي أُكلها في زمن وقوعها أو بعد حين، وطالما تحدثنا أن إيقاع الأضرار من خلال الحصار الاقتصادي أو الاجتماعي وحتى الديني التي تسكن أعماق السياسة، إلا أن المقاطعة تشملها أيضاً، فتمنع عن الساسة الحركة والتنقل عبر الماء أو الهواء، وحتى السير على التراب، فهل قواها ناجعة إلى هذا الحد، حيث تشكل الحواجز المانعة للرؤية، أو توقف حركة القيادة نحو إجراء التغييرات الهائلة المطلوبة من محيطها القريب والبعيد، وقبل ذلك فك حالات التقوقع وكسر القيد، وفتح بوابات الظلمة والاتجاه إلى الضوء المنعكس من الأجسام المادية التي تعكسها على العين البشرية، لتحدد ماهيتها وسبل التعامل معها، فإذا لم تنجح السياسة في القيام بعملها المطلوب بشكل رئيس، الذي يتجلى في إجراء عملية التصالح، فإن المعاناة ستبقى، وتأخذ بجمهورها إلى عملية التناقض، ومن ثم ضمور قاعدتها الاجتماعية التي تستند إليها.

كيف نحدث التصالح الاجتماعي، ونحن نرى نمو جدلية الفساد المقيتة تتحرك مع تنمية الثراء الفاحش في الأشكال السياسية والاقتصادية وتنمية الفقراء والعمل الحثيث على نشر ثقافة الفقر وتهميش الوعي الأخلاقي على حساب تنشيط الفكر الديني، وخاصة أن شعبنا تواق لتحقيق الأمنيات الكبرى؟

إن هذه الأماني تتجلى في تحقيق المصالحات الوطنية، ووحدة جغرافية الوطن، وزيادة رفعته وقوته، ومن بعد ذلك الدخول إلى عوالم الأمة بأطيافها كافة، وإجراء المصالحات النوعية معها بعد شرح الأخطار الخارجية التي تحيق بها، وما أكثرها، ناهيكم عن مخاطر التخلف والجهل وقبول الفتن والارتهان للآخر، والتصدي لكل ذلك يحتاج إلى التصالح أولاً، ومن ثم بناء إستراتيجية عربية واقعية، لأننا كوطن وكأمة لم نخض يوماً حرباً عادلة، وأعيادنا دائماً شجية ومؤلمة، ولم نصل حتى اللحظة إلى تحرير عقولنا التي بها نضمن خلاصنا من التهميش الاجتماعي ونزع الفوارق الطائفية والدينية، ونخلص إلى ضرورة الإيمان ببعضنا بغاية تحقيق ضمانات الحماية المدنية، فما الذي يمنعنا من الوصول إلى اللحظة الواقعية التي نصارح فيها عقولنا، ونتخلص من جميع مشاريع التكاذب والباطنية السياسية والتواريخ الكاذبة التي تأخذ بنا دائماً إلى مواقع التقاتل والالتهاء بصغائر الأمور، بينما التاريخ الحقيقي يسكن أماكن ربما تكون أمامنا، إلا أنه ليس في ذاكرتنا؟

طبعاً من حق الجميع طرح الأسئلة الاجتماعية عن مصلحة التصالح مع من، وهل يعقل أن تصل لتكون مع الشيطان؟ ومنهم من يقول لماذا؟ وآخرون يطرحون كيف ومتى، وعن النتائج التي تحققها؟

كيف نتغاضى عن كل المآسي التي مررنا بها؟ وكيف نسامح من اعتدى علينا، وأرصدة الشر التي مولت التدمير بدلاً من الإعمار وآليات النظر إليها؟ وأهم من كل هذا وذاك، كيف نتخلص من لغة الدم التي تحركت بين فجوات العلمانية والمنظومة الدينية، حيث قاموا باستخدام آلياتها؟ كيف نسقط من عقول أبنائنا وأحفادنا ما شهدنا عليه؟ فإن بعضنا ساوم على ترابنا الوطني وعروبتنا، واستدعى قوى الغدر وكل أشكال الإرهاب، هل يمكن أن يحدث التصالح والدمج السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني؟ كيف نطوي النزاع، وننهي الصراع؟ أليس إحداث الاتفاق والتصالح حالة إستراتيجية بالغة الأهمية لتحقيق الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي يحمي عملية بناء الازدهار القادمة التي أعتقد أنها منحت لوطننا ولفترة طويلة؟

المهم أن نبدأ عملية التصالح، ومعها تسير عملية الإصلاح التي تشير إلى أن الصالح لم ينته، وما نحتاجه إما استبدال بعض من مكوناته المفقودة وإما المعطلة، وهذا يأخذ بنا لفهم الفوارق بين التجديد أو الترميم والإصلاح، فشعبنا تقبل المفاهيم الثلاثة المذكورة، لأنه لا يعرف اليأس، ولم يعتره القنوط، على الرغم من ضغط العيش وآثار ما جرى معه، وتعلقه بالنصر، ودفعه من أجل ذلك الكثير الذي فاق قدراته رفضاً للهزيمة، وهدفه الرئيس إنهاء الحرب التي يصر بعض الدول، وعلى رأسها أمريكا، على استمرارها في كثير من المناطق القابلة للتصالح والرافضة لأي وجود احتلالي لأجل تأمين مصالحها المتضاربة عالمياً، وهنا نقول: إن العروبة السورية بيت الجميع ووطن الأسرة الكبيرة التي بنت اسمها من شمس الشرق، لذلك يتحدث المؤمنون بها بأن رفض التصالح لا يجدي نفعاً، ولا مستقبل لمن يقول له لا، وللذين يقتاتون من عمليات دق الأسافين نقول لهم: لا تشغلوا أفكاركم بالرفض، واتجهوا إلى الإسهام في محاور التطوير الذاتي، واستعدوا لحقبة جديدة، لأن الرفض يمثل إضاعة الوقت، لا أكثر ولا أقل.

ليقف جميعنا على أرضنا الوطنية، ولنعلن رفضنا للعنف وإدانتنا للإرهاب، ولنقاومه ونقاتله، وألا نسمح لأولئك المستغلين للرسالات المقدسة استخدامها في صراعات الأدوات المدارة من القوى العظمى على جغرافيتنا.

نعم خرجنا من المآزق المسكونة في الأنفاق المظلمة، بقي علينا إحراز التقدم وتجاوز ذهنية المراوحة، وإنهاء معوقات التقدم والبدء في التصدي للمكونات الاجتماعية المتهلهلة، وتشكيل روافع منطقية تأخذ على عاتقها تكوين فكر إصلاحي تصالحي، يؤمن بالعلم والعمل والإيمان بإنسانية الإنسان، فإن لم نستثمر في الوقت الثمين، فإن الآخر غير قلق من تطور المأساة، وأكثر من ذلك ربما نجد أن هناك كثيراً من الساعين لإفشال ما تحقق من جهود جبارة على الأرض بغاية تحرير كل شبر منها، وإنهاء كل أشكال الاحتلال مع دحر الإرهاب، ونحن قادرون على تحقيق مفهوم التصالح والوصول إليه، ومن ثم الاتجاه لتقديم لغة جديدة قوامها العدل المنطقي والحرية العاقلة والديمقراطية الواقعية وتعزيز التعليم الفكري بهدف القضاء على الأمية الفكرية، وعدم الاكتفاء بالتعليم الوظيفي، وتعديل القوانين وخاصة المرأة، وبناء فكر إيماني يتصدى لكل أشكال التطرف الديني، وتعميق مفاهيم مقاومة الاستبداد العالمي واستغلاله للشعوب الآمنة، وتعميق انتمائنا العروبي.

متى نعترف أن لدينا أخطاء، وأننا لن نصل إلى الكمال، وأن لدى الآخرين أيضاً صواباً من كل ما سرنا إليه؟

دعونا نتصالح مع الوقت، وأن نسعى لاستيعاب المساحة المعطاة لعوالمنا ولشعوبنا من الوقت، وبجهودنا نقدر على توسعتها، شريطة أن يكون لنا فيها إنجازات اجتماعية، أولاً لأنها وحدها كفيلة بخلق اقتصاد مهم، وتعود على السياسة لتمنحها قوى متعددة في الحركة التي تريد منها إحداث التطور. وثانياً لأن الخسارة ليست عيباً، لكنها تصبح كذلك، إن لم يحدث استيعابها وتحليل أسباب حدوثها، ومن ثم تجاوزها، وصولاً لتحديد وإنشاء المسار الصحيح مع تسريع التقدم الذي لا يكون إلا من خلال تكافؤ الفرص الناجحة، وتكوين طبيعة العلاقة والانسجام وصولاً للتكامل والتجانس اللذين يلغيان أفكار العيش والتعايش القسري، كما أنهما ينهيان أقسى الأزمات الإنسانية التي ولّدت اللجوء والهجرة والفقر والجوع والهدم والتدمير.

كثيرة هي الشعوب التي لديها حيوات تعيشها طولاً وعرضاً، مداً وجزراً، ضمن مستويات وتنوع في المهام والاهتمام والقناعات والعلاقات، وقليلة هي الشعوب التي تسأل ماذا تريد من حياتها الطويلة، وبقاؤها مرتهن بما تحققه من إنجازات، ونادرة هي التي تحاسب وجودها، وتعالج أخطاءها، وتردم فراغاتها، فلا يكون بها انقطاع، إنما وصل وتواصل دائمان.

لقد أثبتت السنون العجاف أننا شعب قادر على الحياة، قوي ويؤمن بها، لكن ما ينقصه يكمن فيما يخافه، الذي طالما هربنا من مواجهته، والآن وصلنا للوقوف أمامه لنسرع بالتصالح، لأن المصالح تحتاج إلى أكثر مما ذكرناه.

د. نبيل طعمة

«دو ري مي» عرض مسرحي يحترم عقل الطفل

غسان الدبس لـ«الوطن»: النص يحمل فكرة جميلة وبسيطة تعتمد على الحلول غير التقليدية

سارة سلامة

تحمل مدينة الفرح كل الألوان والألعاب والموسيقا والرسم والألوان وتعكس حالة الحب والهناء التي يعيشها سكان هذه المدينة، ويمارس أطفالها النشاطات كافة إلى أن اقتحمها الغيلان محاولين زرع الشر فيها وبث السواد، ولم يكن أمام الوالي وأبنائه من حلّ سوى حرق وإغراق المدينة للتخلص من الغيلان الأشرار، ولكن هذا كله لم ينفع بل عاد عليهم بنتائج سلبية، وما من فائدة أنجتهم إلا نصيحة كان قد ذكرها والد طفلة تدعى ليلى التي كانت والدتها تعاني مرضاً خطيراً ومع عجزهم عن تأمين المال الكافي لتأمين الدواء البعيد المنال قال لابنته إن العلم والثقافة والموسيقا هي من تستطيع إيصالك للدواء فأنت تملكين أثمن ما يمكن أن يحصل عليه المرء، وبالفعل استطاعت أن تحول حياة والدتها وحياة المدينة كلها إلى فرح واستطاعت نزع السواد وتحوير قلب الغيلان إلى المحبة والسلام وذلك ليس من خلال قتلهم إنما أنسنتهم موسيقياً وتشكيلياً وتعليمياً.

هذا أبرز ما احتوى عليه عرض «دو ري مي» الذي أطلقه مسرح الطفل في مديرية المسارح والموسيقا بوزارة الثقافة، والنص من تأليف جوان جان وإخراج غسان الدبس والعرض مستمر إلى الساعة السادسة من مساء يوم غد على خشبة مسرح القباني.

الموسيقا لغة لا تترجم

وفي تصريح خاص لـ«الوطن» قال المخرج غسان الدبس: «إن النص يحمل فكرة جميلة وبسيطة هي التي دفعتني باتجاهه، وفكرته الأساسية تعتمد على الحلول غير التقليدية، الإنسانية أكثر من الحلول الفنية، أي إنه عندما نتعامل مع الموسيقا تحمل الأمور بالمجمل حالة رائعة وجميلة وإنسانية، ومقدمو العرض هم مجموعة من الأطفال والكبار وأسميهم بالمجموع العام أطفالاً، وهناك أطفال كانوا موجودين على صعيد الموسيقا والإضاءة والديكور، أي إن الديكور أيضاً من تصميم الأطفال وبإشراف الديكورست ريم الخطيب، فكان الأطفال يرسمون إلى أن وصلت لحالة تجميع لرسم الديكور وهذا الشيء يجعلنا نقول إن العمل من صنع الأطفال بامتياز».

وبالنسبة للصعوبة التي واجهها في التعامل مع الأطفال أوضح الدبس «أن العمل صعب ولكنه ممتع، وتكمن الصعوبة إننا نحاول أن نلعب مع الطفل لعبته، وهو قادر بدقيقة واحدة على ابتكار ٢٠ لعبة، وكان التحدي أمامنا هو إلى أي درجة قادرون على صنع لعبة بمفهوم هذا الطفل، لأنه اليوم طفل ذو عقل متطور وتكنولوجي وحضاري، وهو قادر على الاطلاع على جميع ثقافات العالم ومسارحها بآن واحد من خلالها جهازه الذكي، ونلعب هذه اللعبة مع الطفل لنخرج بعمل يكون على قدر السوية العقلية التي يتمتع بها الطفل».

وعن الخوف الذي يمكن أن يراود المخرج في عمل أسمى ما يمكن أن يطلق عليه بقيادة أطفال بين الدبس: «أنه ليس تخوفاً بل حرصاً كي لا نكسر عند الطفل شفافيته العالية، ونحترم عقله ونخرج مع بعضنا أسوياء، ولا يوجد في العرض ألعاب تكنولوجية، حيث إن الألعاب تعتمد على الذاكرة وعلى احترام مستوى الطفل، وهناك ألعاب طفولية عالقة في ذاكرتنا تندثر اليوم ونحن لا نكسر هذه الذاكرة ولا نكسر التكنولوجيا في آن معاً، وفكرت في استخدام كل الألعاب الالكترونية، ولكن إلى درجة يستطيع الطفل افتعال ردات فعل وحركات وهو يمسك بيده جهاز موبايل مثلاً وعلى الرغم من المتعة التي يحتويها إلا أنها متعة جامدة».

وعن أهمية إدخال المسرح إلى حياة الطفل قال الدبس: «إن عند كل طفل هاجس الوقوف على المسرح والتمثيل، ولا أخاف من استقطاب الأطفال لأننا منذ المشهد الأول نبدأ نحن الكبار بروح الطفل».

وإلى أي درجة كرس العرض أهمية الموسيقا والثقافة أفاد الدبس «أن الحلول في العرض هي حلول موسيقية والحلّ النهائي يعتمد على التشكيل والموسيقا، أي إن العلم والفن هو الآلية التي دفعتني باتجاه هذا النص، ويحتوي العرض على ٣ خطوط رئيسية وهي علاقة الأب بالطفل وهي علاقة مفصلية بين الأب السلبي والأب الإيجابي، والحلول هي موسيقا وتشكيل، وهما يعتمدان على العلم، والموسيقا هي لغة لا تترجم وليست بحاجة للترجمة، ونقوم بترجمة أي معزوفة إلى حالة إنسانية ولو أننا تمسكنا بهذه الحالة وسمعنا الموسيقا ولو آمنا بالفن التشكيلي وبروحه الجميلة فما كنا لنتقاتل».

وعن الرسالة من عرض «دو ري مي» قال الدبس: «إن رسالتي موجهة للطفل باحترامه واحترام عقله، وألا نتعامل معه بأسلوب قاسٍ وصوت عالٍ وخاصة في مجتمعاتنا التي تحمل إرث اجتماعي سيئ، وتعليم الطفل ألا يخاف من الكبار وهي ليست آلية تحريض، بقدر ما هي رسالة مزدوجة مفادها: (احذروا أيها الكبار من الأطفال لأنهم بمستوى ذكاء عال ومن الصعب الوصول للمستويات التي وصلوا إليها)».

وعن إقبال الناس على العرض وهل كان بمستوى يرضي الجهود المبذولة أكد الدبس «أن إقبال الناس على المسرحية كان بشكل كبير، ولا أخفي أنني قلقت بداية، ولكن التفاعل كان إيجابياً لدى الأطفال بالدرجة الأولى، ونحن لعبنا لعبة فنية بامتياز ولم نخدش خصوصيات معينة إنما قلنا للكبار إن هؤلاء الأطفال يستحقون أن يكونوا موجودين باحترام، وركزنا على مسألة تخويف الأطفال من الغيلان وهي مسألة خطيرة حيث يقوم الكثيرون بتخويف أطفالهم».

> جوان جان: نركز اليوم على أهمية الفن والعلم في حياة الطفل

وعن التقنيات المستخدمة في العرض بين الدبس: «أنها كانت مقبولة إلى حد ما على صعيد الإضاءة والمؤثرات البصرية والموسيقا كانت جميلة وهي لسامر الفقير، وعلى صعيد الديكور كان بالتعاون مع ريم الخطيب التي عملت ديكوراً من نتاج الأطفال وكان بتصوري ديكوراً أكاديمياً احترافياً».

لا يحمل وقتاً للملل

ومن جهته أكد كاتب النص جوان جان «أن مسرح الطفل هو إحدى الوسائل التربوية الفنية التي نتوجه من خلالها للأطفال لتقديم المعلومة المفيدة والموعظة الأخلاقية، بإطار وقالب فني مقبول يحتوي على الأغنية والموسيقا واللحن ومجمل عناصر العرض المسرحي، وهو مسرح ضروري ومطلوب وخصوصاً في هذا الوقت التي ازدادت فيه التحديات أمام أطفالنا الذين يتعرضون لمختلف أنواع غسل الدماغ إعلامياً في ظل الواقع الحالي، وهو العمل المسرحي الثالث الذي أكتبه للأطفال بعد (مغامرة في مدينة المستقبل) و(حيلة العنكبوت)».

وأضاف جان: «إننا نركز اليوم على أهمية الفن والعلم بحياة الطفل، وأنها السلاح الحقيقي بيده التي يمكنه من خلالها تجاوز مختلف العقبات والصعوبات، وندعو في هذه المسرحية إلى تعليم الأطفال الفن بطريقة صحيحة منذ الصغر لكي يقدروا في المستقبل على تجاوز المصاعب والعقبات التي تعتريهم».

وتابع جان حديثه قائلاً: «إن إقبال الناس جيد بالعموم ونرى تجاوب الأطفال طوال مدة العرض، لأن العرض لا يحمل وقتاً للملل ولا يشتت انتباه الطفل أو يشغله عن مواصلة المسرحية، وهذا ما ركزنا عليه منذ البداية حتى النهاية وخاصة أن الطفل يُشدّ دائماً للحكاية ونحن منذ المشهد الأول ندخل الطفل بأجواء الحكاية، وهذا يوضح الجهد الكبير الذي قام به المخرج غسان الدبس مع مجموعة الممثلين لتحويل الكلمات المكتوبة إلى كائن من لحم ودم، وخاصة أن النص المسرحي لا يكتمل إلا على المسرح، وهذه التجربة حملت ترجمة الأفكار الموجودة في النص والحوارات والشخصيات بطريقة سهلة ومفهومة بالنسبة للطفل».

الاستسهال في مسرح الطفل

أما الفنان جمال نصّار فبين «أن رسالة مسرح الطفل هي رسالة نبيلة وتزداد أهميتها وخاصة في هذه الأيام العصيبة التي تمر على بلدنا، والأثر الذي يبقى في نفوس أبنائنا الذين عاشوا سنوات صعبة انعكس عليهم سلبياً، ونحن في مسرح الطفل يقع على عاتقنا بشكل كبير إرجاع هؤلاء الأطفال إلى السكينة والسلام من حالة التوتر والرعب التي مرت عليهم، والتوجه إلى الطفل هو واجب يمس كل الشرائح وأخذه إلى التعلم واللعب بسلام كنشئ جديد على هذه الحياة».

وأضاف نصار: «إنني منذ تخرجي في المعهد اخترت الانحياز إلى العمل في مسرح الطفل، وباعتقادي هو واجب عليّ كفنان لتأسيس وبناء الأجيال، وللأسف نعاني في سورية الاستسهال بمسرح الطفل، وحتى العاملين في هذا القطاع مهمشون وغير مسلط الضوء عليهم، مع أن الرسالة التي يحملها ممثل مسرح الطفل رسالة نبيلة ويجب أن تحترم وتقدر بشكل أكبر مما هي عليه».

وأفاد نصار «أن رسالة العرض تقول إنه بالحب والموسيقا والعلم والمعرفة نستطيع كبح جماح الشر وإعادة الإنسان الشرير إلى إنسانيته لأنه في الأصل لم يخلق شريراً ولكن ظروف معينة أجبرته على أن يكون هكذا، ومهمتنا ليست قتل هذا الإنسان وإنما إعادته إلى الحياة من جديد وأن نبث فيه روح الحياة الطبيعية التي يجب أن يعيشها».

تقصير كبير

وقالت الفنانة تماضر غانم: «إنني أجسد في العرض دور زعيمة الغيلان حيث نقوم بالهجوم على القرية، وهدفنا هو التخريب وترهيب الأطفال، وكلما كنا نقترب من المدينة أكثر يقوم الوالي وأولاده بإحراق المدينة وأيضاً إغراقها من أجل أن نحترق أو نغرق، ولكن ذلك ينعكس سلباً على الملك والمدينة، والحدوتة في النهاية تعلم الطفل الموسيقا لغة العالم والمحبة وتصبح هناك ألفة بين الغيلان والأطفال، وأعمل منذ العام ١٩٩٩ في مسرح الطفل وهناك تقصير كبير من الإعلام في تناول موضوع مسرح الطفل».

الطفل أصدق من الكبير

وتحدثت الفنانة رشا الزغبي عن دورها في العرض قائلة: «إننا نمثل مجموعة من الغيلان، ونتبع زعيمة تقودنا للشر ولكننا عندما ندخل إلى المدينة ونرى الألعاب نحبها ونلعب بها ونجرب كل شيء، وتكون الشخصية من داخلها رافضة للشر ومتقبلة أكثر للفرح والخير ونراها أخيراً تنضم للأطفال وتميل للرسم والموسيقا، وبالعموم فإن تجربة مسرح الطفل هي تجربة ممتعة وتحديداً أن العمل مع المخرج غسان الدبس يحمل شيئاً مختلفاً، وهذه التجربة الثانية معه وهو لا يقول لنا اعملوا بروفات بل يقول تعالوا العبوا وهذا ما يسمح للمثل تقديم أفضل ما يملك، وهناك صعوبة في مسرح الطفل بشكل خاص لأن الطفل عادة ما يكون أصدق من الكبير، والكبير يمكن أن يجاملنا ببساطة أما الطفل فلا يمكن أن يجامل، ولفتت إلى أن لديها مشاركة سينمائية قصيرة مع المخرج فراس محمد».

الأطفال يعملون على أنستنا

وبدورها قالت الفنانة إنعام الدبس: «إنني أجسد دور غولة غبية تنفذ كل ما تؤمر به وهناك ترابط بين أدوار الغيلان، وتقوم فتاة اسمها ليلى بتقريب الغيلان من الأطفال من خلال الموسيقا والقراءة، ويعمل الأطفال على أنستنا».

ويذكر أن العرض من بطولة مجموعة من الأطفال هم (ماريا عيد، ربيع جان، شادي جان، جوليا سالم، بتول عيد، وكل من الممثلين جمال نصار روجينا رحمون وتماضر غانم ورشا الزغبي وإنعام الدبس وسنا حسن وماجد عيسى ومحمد سالم).

«تحت سرّة القمر» حين ينتقل من الرواية إلى الشاشة الفضية

أحمد محمد السح

تأخر عرض الفيلم السينمائي «ليليت السورية» للمخرج السوري غسان شميط قرابة عام ونصف العام، ثم عرض الفيلم في شباط الماضي، وكان للمهتمين ملاحظة ضعف الاحتفال بالفيلم يوم الافتتاح، واقتصاره على قاعة صغرى في دار الأسد للثقافة والفنون، الفيلم المأخوذ عن رواية «تحت سرة القمر» للكاتبة جهينة العوام يعيد توجيه اللغة لتصير صورةً تحكي حياة الحرب والفوضى التي تحكم المجتمع.

الفيلم عرض على شاشة سورية دراما في آخر أيام عيد الفطر السعيد فكان مفاجئاً أن يتم توزيعه بهذه السرعة من المؤسسة العامة ومنحة للشاشة الصغيرة على حين لم يصل الفيلم إلى المراكز الثقافية ودور العرض في المحافظات السورية كافة، وهي مشكلة قديمة حديثة وقد يكون هذا مفيداً للفيلم والمخرج من حيث الانتشار، ولكنه ظالم للقيمة الفنية للسينما الفن الملكي من دون منازع، وفيه شيء من الاستعجال، ربما تحكمه ظروفنا وظروف سينمانا الكثيرة الشجون.

يتشابك الماضي والحاضر في الفيلم لنشهد ماضياً ماجناً لشخصية نبيل (وضاح حلوم) رجل السلطة الذي يتحالف مع الحاج عبد القادر (عبد الرحمن أبو القاسم) عبر زواج ظالم من ابنة الثاني سناء (علا باشا) لتعيش شخصية إنسان مكسورة ضعيفة، يصل بها الضعف إلى الاعتراف بمشاعر عابرة مع جار سابق لها في الحي هو المهندس علاء (مروان أبو شاهين) لتظل تحت تعذيب الضمير وفقاً للأسس التربوية التي أحاطها بها والدها الذي يتخذ من الدين مطية، ليدفع ابنه أحمد (مجد فضة) ثمن ماله الخسيس واستغلاله للناس حين يخطفه الرجال الذين اعتمد عليهم والده في استغلال القرية وتحجيم أبنائها بتقديم الخدمات الدينية لهم فقط، من دون تقديم أي قيمة خدمية لحياتهم البائسة التي تعريها الحرب.

ينجح المخرج غسان شميط في توظيف موهبة الممثلة علا باشا، وإعطائها دوراً لشخصية أكبر منها سناً من دون الوقوع في مطب جعلها كهلة، فهي شابة أجبرت على الزواج المبكر الذي جعلها تبدو كبيرةً في السن، ولكنها من حيث العمر هي شابة... وتستعيد شبابها بعد وفاة الزوج الذي عاش معوقاً معها نتيجة تفجير أراد أحد موظفيه قتله من خلاله؛ انتقاماً من سلوكه الرديء واستغلالاً منه لفوضى الحرب، على حين تدفع سناء تعبها عناية به وهو الخائن الظالم الفاسد الذي لم يعاملها أكثر من جارية في عهد سطوته، الأداء الناجح للممثل وضاح حلوم في دور المشوه رافقه أداء متميز وبسيط للممثلة علا باشا في حين كانت اللمعية تبدو في جهد الممثل مجد فضة الجانب الطيب والجميل في الفيلم ضحية جرائم والده الذي لا يتفق معه في سلوكه، ولكنه لا يعبر عن ذلك إلا مع شقيقته سناء فقط، لكن وهن الأداء يبدو في انفعالات الممثلة ليا مباردي التي تستخدم تقنيات تلفزيونية عادية جداً في أداء دور سينمائي كان من الممكن لها استغلاله ليكون خطوة محسوبة لها في السينما، تستطيع أن تعتمد عليها في أرشيفها مستقبلاً.

تبدو إهانة المجتمع واضحة من خلال تحالف الدين والسياسة وهي الرسالة التي يقولها المخرج على لسان إحدى شخصياته: (إيمتى بقى بدنا نخلص من السياسيين ورجال الدين ليرجعلنا الله) هذا الاستخدام المباشر لاسم الذات الإلهية يعطي جرأة لغسان شميط في فيلمه وهو ما يحاذر المخرجون الاقتراب منه عادةً لأسباب رقابية أو أسباب عدم التصادم مع المجتمع ورقابته الخاصة، المجتمع الذي يسرد له الفيلم شيئاً من مذكراته عبر تقديم ذاكرة بعض التفجيرات عبر الشاشة كتفجير القزاز الشهير وتفجير ساحة السيوف في مدينة جرمانا، ويربط لنا المأساة السورية بالمأساة العراقية عبر مشهد مؤثر تقوله شخصية عراقية لتوصّف ببساطة استقبال السوريين للعراقيين وقت لجوئهم، مستخدمين اللفظة السورية (معوضين) ليرد لهم الرعاقي دينهم بدموعه الساخنة، قائلاً (معوضين يا أطيب وأخير ناس)، ولا يكتفي المخرج بروي الأحداث روياً فقط إنما يعود لرسمها وانتزاعها من ذاكرة شخصياتها مثل حالة خطف أحمد التي يبدو ضعيفاً أن يتم سردها كلاماً لكن المخرج يعود لتصويرها فلاش باك حين يعيدها أحمد بالتفاصيل بعد تحرره من الخطف، وهي سمة الشرح الواضح والتسلسل المنطقي التي وصف بها أفلام غسان شميط صاحب «شيء ما يحترق» و«الهوية» و«الشراع والعاصفة» فهو يعتمد السبب والنتيجة فلا سلوك من دون تبرير، فلا خير أو شر مطلق من دون ارتباطه بسبب إما الثأر أو السرقة أو التربية، وهو نجاح والتزام بمعايير السينما التي تعلّمها المخرج وتربى عليها، المخرج الذي يترك أفلامه بنهايات فجائعية ومفتوحة، وصرخات شخصياته الموجعة يترك المشاهد أمام التساؤلات التي يعرف الإجابة عنها ولكنه يتهرب منها، مع أنها واضحة في ذهنه وضوح صحون الفواكه الكبيرة التي تحضر كثيراً في الكوادر السينمائية لمشاهد صاحب «شيء ما يحترق» معبرةً عن الترف أحياناً والجوع أحياناً أخرى أو تعدد الخيارات للشخصيات في اختياراتها.